
مجلة الشهاب • المجلد: 09، العدد: 02 (2023م) • ص ص 297 - 322
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391

تأثر المسلمين الباحثين في علم الأديان بالغربيين القائلين بمبدأ التطور في عقيدة التوحيد.

Muslims researchers in the science of religions were influenced by Westerners who believe in the principle of evolution in the doctrine of monotheism.

د/ بشير بوساحة *
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2023/02/07 | تاريخ الاستلام: 2023/05/03 | تاريخ النشر: 2023/07/15



ملخص: تهدف هذه الدراسة للوقوف على أسباب تأثر مفكرين في العالم الإسلامي، بما فيهم بعض الباحثين في مجال علم الأديان، وأخذهم بالرؤية الغربية الوضعية حول أصل الانسان وتاريخ نشأة الإنسانية. حيث تظهر فكرة أن الانسان الأول كان بدائي وهمجي لا يعرف شيئا، ويظهر أنه لا يعرف خالقه، ولا رؤية له حول الكون. وأن حياته وفكره ومعارفه ودينه، مرّت كلها بمراحل نمو وتطور. ومن ذلك أن الانسان تطورت فكرته حول حقيقة الألوهية، فانتقلت من الخرافة والوثنية ثم تعدد الالهة وصولا إلى التوحيد في الألوهية.

وخلصت هذه الدراسة إلى أن الانبهار بالدراسات الغربية، وما يظهر فيها من جُهد ورصانة علمية ومنهجية دقيقة، جعل بعض الباحثين في عالمنا الإسلامية، يتأثرون بما وصلت إليه من نتائج، ويعتبرون ما أُلف هناك مصادر موثوقة، رغم أن بعضها كان ينتقد البعض الآخر وربما ينقضه. كل ذلك يجعلنا نؤكد على ضرورة الالتزام بالرؤية القرآنية والتحيز لها، في مختلف الدراسات سواء فيما يتعلق بتاريخ البشرية وأصلها وتاريخ الأديان، وفي غيرها من الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: عقيدة التوحيد؛ علم الأديان؛ نظرية التطور؛ الرؤية القرآنية؛ الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

Abstract: This study aims to find out the reasons for the influence of thinkers in the Islamic world, including some researchers in the field of theology, and their adoption of the Western positivist vision on the origin of man and the history of the emergence of humanity. Where the idea appears that the first man was primitive and barbaric and did not know anything, and it appears that he does not know his Creator, nor does he have a vision about the universe. And that his life, thought, knowledge and religion all went through stages of growth and development. Accordingly, man developed his idea about the reality of divinity, so it moved from superstition and paganism, then the multiplicity of gods, leading to monotheism in

* المؤلف المراسل.

divinity.
This study concluded that the fascination with Western studies, and what appears in them of effort and sobriety, scientific and accurate methodology, made some researchers in our Islamic world, affected by the results reached, and considered what was written there as reliable sources, although some of them were criticizing others and perhaps contradicting them. All of this makes us stress the necessity of adhering to the Qur'anic vision and bias towards it, in various studies, both with regard to the history of mankind, its origin, and the history of religions, and in other human and social studies.
Keywords: the doctrine of monotheism; science of religions; The theory of evolution; Quranic vision; Human and social studies.

1. مقدمة

من الباحثين والمفكرين في العالم الإسلامي من ينساق إلى الرؤية الغربية الوضعية حول أصل الانسان ومسار تاريخ الإنسانية، وقد تأثر بذلك بعض الباحثين في مجال علم الأديان. فظهرت عندهم فكرة أن الانسان الأول كان بدائيا وهمجيا لا يعرف شيئا، حتى أنه لا يعرف خالقه، ولا رؤية له حول الكون. وأن حياته وفكره ومعارفه مرّت بمراحل نمو وتطور (وهو المقصود بمبدأ التطور). ومن ذلك أن الانسان تطورت فكرته حول حقيقة الألوهية، فانتقلت من الخرافة والوثنية ثم تعدد الآلهة وصولا إلى التوحيد في الألوهية.

فالمُلاحظ من خلال الاطلاع على أشهر ما ألّفه الباحثون المسلمون في علم مقارنة الأديان وتاريخها، أنّهم يأخذون بترتيب تاريخي يوحي بأن الوثنية هي بداية المعتقدات الدينية في المجتمعات البشرية الأولى، فهي تُرتّب ظهور الأديان ونشأتها، بداية بديانات الحضارات القديمة كالمصرية ومعتقدات ما بين النهرين وغيرها، ثمّ الديانات الوضعية ثمّ تليها الديانات السماوية (اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام). وهذا ما يُرسّخ في أذهان كثير من الطلبة والقراء، أن التوحيد ظهر متأخرا بعد أن سبقته مراحل تقلبت فيها البشرية بين أنواع من الوثنية. وفي ذلك انسياق واضح إلى التصور والرؤية الغربية الوضعية، حول تاريخ البشرية وتاريخ معتقداتها الدينية.

فماذا تقول الرؤية الكتابية الواردة في الكتاب المقدس حول هذا الموضوع؟ وما مدى توافقها مع الرؤية القرآنية؟ وكيف تبلورت الرؤية الغربية الوضعية حول أصل الانسان وتاريخ البشرية ومعتقداتها، وخاصة عقيدة التوحيد؟ وما هي أسباب انسياق وتأثر المفكرين والباحثين المسلمين بالرؤية الغربية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اتبعت منهجا استقرائي تحليلي. وتجدر الإشارة إلى أن هناك دراسات سابقة أشارت لتأثر المفكرين المسلمين بمبدأ التطور الغربي، والقول بالتطور في العقيدة خاصة عقيدة التوحيد والقول بأنها ظهرت متأخرة، ومن تلك الدراسات "العقيدة الدينية . نشأتها وتطورها" لفرج الله عبد الباري، الذي أشار إلى تأثر كل من سليمان مظهر، وطه الهاشمي، ومحمود عباس العقاد، بالرؤية الغربية القائلة بتطور العقائد، وعلى رأسها عقيدة التوحيد. إلا أنها كانت مجرد إشارة عابرة، حاولنا تفصيلها في هذه الدراسة، والوقوف على أثر هذه الرؤية وفكرة التطور، على طريقة عرض وتدريس

تاريخ الأديان، وأثرها على ما أُلف في مجال مقارنة الأديان. والوقوف على مدى تأثر الباحثين في التاريخ والعلوم الإنسانية، بهذه الرؤية الغربية.

2. التوحيد والوثنية بين الفكر الديني والفكر الوضعي

عُرف في الفكر الديني المؤسس على الأديان السماوية، أن الله الخالق قد أرسل رُسلا بوحي إلهي، أنتج رسالات سماوية لعبت دورا هاما في تعليم الإنسان وإرشاده إلى عقيدة التوحيد وأركان الايمان، التي تجد بذورها النقية في نفس الإنسان وفطرته. فأشبعت حاجة هذا الإنسان المعرفية والروحية والوجدانية. أما ما وجد بعد ذلك من تيارات متضاربة أو انحراف عن عقيدة الألوهية والتوحيد، فما ذلك إلا لرِدّة وانتكاسة انتابت الإنسان عبر التاريخ البشري. ففكرة الألوهية حاضرة في كل ديانة، وفي تدين جميع الشعوب، وفي هذا الإطار يقول محمد كمال جعفر: "فالعقيدة في إله أو قوة فاعلة مؤثرة تتعالى وتسمو على الكون والطبيعة، جزء حيوي يُشكل الأساس لكل دين على وجه الأرض، سواء أكان في حالة بدائية أو في حالة متطورة، وبذلك لا يمكن الموافقة على آراء أعلام المدرسة الاجتماعية الفرنسية وبخاصة إميل دوركايم ورينان، المتعلقة بحذف مبدأ أو فكرة الألوهية من الدين وعدم اعتبارها مُقوما ضروريا في تشكيله وتكوينه، بحجة وجود أديان خالية من هذه الفكرة أو غير معنية بها كالبوذية والجينية والكونفوشسية"[1] فتلك الأديان الوضعية هي في الأصل منظومة أخلاقية وتربوية، ظهرت ونشأت في بيئة كان لأهلها تصور وفكرة حول الألوهية. وهو ما جعلهم بعد موت مُؤسسها يؤلهونهم، فأصبح كل من بوذا وكونفشيوس مثلا يُعتبر إلها، وأصبحت تلك التيارات تعدّ من الديانات الوضعية.

فالرسالات السماوية بما فيها من الوحي المنزل على الأنبياء، كان لها السبق بتعريف الناس منذ النبي آدم عليه السلام، ثم الأنبياء من بعده بحقيقة توحيد الألوهية، وتعريفهم بالله الخالق المدبّر والمسيّر. وعليه يكون التوحيد هو الأصل، والوثنية استثناء وانحراف وقع فيه البشر. يقول محمد عبد الله دراز: "... ألا وإنّنا نعرف بالاستقراء أن كل واحدة من هذه الديانات بدأت بعقيدة التوحيد النقية، ثم خالطتها الشوائب والأباطيل على طول العهد"[2].

وقد وقع التحريف في المجتمعات البشرية، حتى أنّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ورغم كونهم أهل علم وأهل كتاب، إلا أن التبديل والتغيير الذي وقع في كتبهم المقدسة، أصبح أمرًا مسلّمًا به حتى في أوساطهم، فما بالك بالتحريف الذي قد وقع عند غيرهم من الشعوب الأخرى. ومن ذلك أنّ المسيحي الكاثوليكي (جان ملز)، يذكر أنّ أهل العلم اتفقوا على أن نسخة التوراة الأصلية، وكذا نسخ العهد القديم ضاعت من أيدي عسكر ملك بابل (بختنصر) (أثناء السبي البابلي لبني إسرائيل سنة 586 ق م)، ولما ظهرت نُقولها الصحيحة بواسطة (عزرا) ضاعت تلك النُقول أيضاً بعد ذلك في حادثة أنتيوكس[3] .

فالانحراف عن التوحيد الذي جاء به الأنبياء، قد حدث في تاريخ البشرية أكثر مما وقع عند أهل

[1] محمد كمال جعفر، الإنسان والأديان، دراسة ومقارنة، ص 32-33.
[2] محمد دراز، الدين . بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص.154
[3] محمد كمال جعفر، الإنسان والأديان، ص53. وينظر أيضا: رحمة الله الهندي، إظهار الحق ، ص217.

الكتاب. فالمعلوم في تاريخ بني إسرائيل أنّ عقيدة التوحيد أكّد عليها أنبيائهم المتعاقبون (عليهم السلام)، وهي ثابتة في اليهودية مع موسى عليه السلام، مع ذلك فإنّ منهم من عبد العجل في حياة النبي موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ**﴾ طه: 88 وذلك ما حدث مع كثير من الشعوب عبر التاريخ البشري.

3. الرؤية الكتابية للتاريخ البشري وتاريخ المعتقدات والأديان

جاء في الكتاب المقدّس المسيحي عن تكوين الإنسانية، في الإصحاح الأول من سفر التكوين: (26 وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كلّ الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدبّ على الأرض 27 فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم 28 وباركهم الله وقال لهم: «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض، وأخضِعوها، وتسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السّماء وعلى كل حيوان يدبّ على الأرض)، وورد في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: (7وجَبل الربُّ الإلهُ آدمَ ترابًا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفسًا حيّة. 8 وغرس الربّ الإله جنّة في عدن شرقا، ووضع هناك آدم الذي جَبله). فهنا تأكيد على أنّ آدم ومن خِلاله البشرية جمعاء خلقها الله تعالى، وأصل خلق آدم عليه السلام من تراب.

وفي التفسير التطبيقي للكتاب المقدّس نجد أنّ آدم هو أبو الجنس البشري جميعا، وقد خلقه الله على صورته، فكانت له صلة وطيدة بالله، إلى درجة أنها تعدّ شراكة شخصية حميمية مع الله. وقد كان آدم في الرؤية الكتابية عالمًا، وهو ما مكّنه من دعوة كل الحيوانات بأسماء، وهو صاحب مهارات أهّلته ليكون المسؤول عن الاهتمام بالجنّة والنهوض بأمرها. وورد في التفسير التطبيقي للكتاب المقدّس، أنّ حواء هي زوجة آدم وشريكته في المسؤولية عن الخليقة، وهي تعكس بعضا من خصائص الله في حياتها، وهي مثل الرّجل تظهر فيها صورة الله. كما أنّها أمّ البشرية جمعاء. وجاء في سفر التكوين: 22/3 عن هذا الزوج البشري: (ثم قال الربّ الإله: ها الإنسان قد صار كواحد منّا، يُميّز بين الخير والشّر). ومع ذلك فقد كانت حواء في الرؤية الكتابية سببا في الخطيئة الأولى، وذلك بعد أن أغواها الشيطان بالأكل من شجرة الحياة، التي منعهم الله من الأكل منها[1]، فهذه الصور لآدم وحواء كما يرسمها الكتاب المقدس، بعيدة كل البُعد عما تقوله الرؤية الغربية الوضعية الحديثة عن الإنسان الأول، الذي تُصوّره على أنّه بدائي متوحش وهمجي.

ورغم التحريف الذي وقع في الكتاب المقدّس، والذي أصبح يَعترف به أهله ويُصرّح به المتخصّصون في الدراسات النقدية للكتاب المقدّس، فإنّ التوحيد حاضر في ثناياه، ورغم الانحراف الذي وقع لعقيدة التوحيد عند اليهود كالتجسيم والتشبيه، والتثليث عند النّصارى، فإنّهم يُصرّون على أنّهم على التوحيد. فقد جاء في سفر التثنية من أسفار التوراة الإصحاح 4 الفقرة 39 : (فاعلم

[1] جيمس قالفن، التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص15.

اليوم وردّد في قلبك أنّ الربّ هو الإله في السّماء من فوق وعلى الأرض من أسفل، ليس سواه). وفيه من الإصحاح 6 الفقرة 4-5: (اسمع يا اسرائيل الربّ إلهنا رب واحد 5 فتُحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك) وفيه أيضا 6/ 14-15: (لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم 15 لأنّ الربّ إلهكم إله غيور في وسطكم لئلا يحمى غضب الربّ إلهكم عليكم فيُبيدكم عن وجه الأرض). وإجمالا فإنّه في سفر التكوين وفي الاسفار الأخرى من أسفار التوراة الخمسة، يأتي الكلام عن إله واحد فقط وحافظ واحد لكل الأشياء، خلق العالم ويتسامى على كل مادة كونية[1]

بل إن الإقرار بعقيدة التوحيد وأنّ الإيمان بالله وحده، لم يكن مقتصرا على بني إسرائيل فقط، فهناك غيرهم كانوا على ذلك الإيمان. ومنهم مؤمن آل فرعون قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ غافر **28** فهذا رجل من أسرة فرعون المحيطين به، ولا بد أنه كان هناك غيره على التوحيد من المصريين.

وفي المقابل كان في بني إسرائيل من كفر بالله أو أشرك به وترك التوحيد. فإضافة إلى من عبدوا العجل، نجد أن ملك يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد (آحاز)، كان يُقدّم القرابين لآلهة ملوك دمشق، الذين غلبوه، وأقام أصناما للإله بعل إله الكنعانيين، وكان (منسى) أحد ملوك أورشليم (687. 642 ق.م) قد بنى مذبحا لبعل، وقدّم أبناءَه قُربانا للنار[2]

وفي الكتاب المقدّس كذلك أنّ الله هو رب العالمين، وإن كان الجزء الخاص بالعهد القديم منه، يتكلم في أغلبه على أنّه إله خاص بالشعب الإسرائيلي، وهي صورة تخالف تصورات العقل السليم عن الله عزّ وجل، ولذلك فهي صورة مرفوضة عقلا ونقلا. ومع ذلك نجد في العهد القديم تأكيدا على أنّه هو الإله الذي خلق الكون بكل ما فيه، وخلق الإنسان ليقيم شريعة الله في الأرض، وعاقب أمما كثيرة خالفت أمره، وهو الذي أرسل موسى عليه السلام لهداية بني إسرائيل وفرعون وقومه، ثمّ أمره بدخول الأرض المقدّسة ليقيم فيها أمر الله[3]

أمّا في العهد الجديد من الكتاب المقدّس، فنجد تصريحا بالتوحيد في إنجيل مرقس(12/ 28-30: إنّ أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الربّ إلهنا ربّ واحد 30 وتحب الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى). وفي إنجيل يوحنا17/ 1-3: تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: «أيّها الأب، قد أتت الساعة. مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضا، 2 إذ أعطيته سلطانا على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته 3 وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته 4 أنا مجدّتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته 5 والآن مجدّني أنت أيّها الأب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم). ويظهر التوحيد جليّا في قصة امتحان الشيطان للمسيح، الواردة في إنجيل متى 4/ 8-10:

[1] هاينريش شباير، قصص أهل الكتاب في القرآن، ص65.

[2] روجيه غارودي، فلسطين أرض الرسالات، ص52.

[3] ريمة الصياد، الأسس الأخلاقية في العهد القديم مع مقارنتها بالقرآن الكريم، ص72-74

(ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها 9 وقال له: «أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي 10 حينئذ قال له يسوع: «اذهب يا شيطان! لأنّه مكتوب: للربّ إلهك تسجد وإياه وحده تعبد).

4. الرؤية القرآنية للتاريخ البشري وتاريخ المعتقدات والاديان:

الكتب السماوية وعلى رأسها القرآن الكريم، المؤيدة بالمعجزات الحسية والعقلية، قرّرت أنّ الله خلق السّموات والأرض وزيّن السّماء الدنيا بمصابيح، وأنّه خلق الملائكة المكرّمين، ثمّ خلق الجانّ من نّار السّموم، ثمّ خلق آدم أبا البشر من تراب، فسوّاه بيده على هذه الصورة الكريمة المستوي ، وأنّه أسجد له ملائكته وجعل له زوجة هي أمنا حواء، وأنّه أمره أن يَسكن هو وزوجه الجنة، فكان الشيطان لهما بالمرصاد قال تعالى : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى** (120) **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** (121) **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ طه 120-122، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾ البقرة 36، وقد كانت معصية آدم بسبب النسيان قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ طه 115. ووقعت تلك المعصية قبل بعثته نبيا. ثمّ هبط آدم أبو البشر إلى الأرض نبيّا كريما مؤمنا بالله وحده يعبده لا شريك له، ويدعو ذرّيته إلى إخلاص التوحيد له.

والمعلوم في القرآن والكتاب المقدس كذلك، أن أبناء آدم عليه السلام: كل واحد منهما قرّب قربانا إلى الله عز وجل، فهما يوحدّان الله ويتقربان إليه، قال تعالى:﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ المائدة 27.

وأرسل الله بعد سيدنا آدم عليه السلام رسلا دعوا الناس إلى عبادة الله وتوحيده، فقد ورد عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: "مائة ألف وعشرون ألفا" قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: "ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّا غفيرا" قال: قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: "آدم" قلت: يا رسول الله، أنبي مرسل؟،قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلّمه قبلا) ثم قال: (يا أبا ذر أربعة سريانيون: آدم وشيت، وأخنوخ وهو إدريس، وهو أوّل من خط بالقلم، ونوح . وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ". قلت: يا رسول الله، كم كتابا أنزله الله؟ قال: "مائة كتاب، وأربعة كتب، أنزل على شيت خمسون صحيفة، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن "[1]. ففي هذا الحديث تأكيد على أن الله بعث كثيرًا من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ فاطر24، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ**

[1] أخرجه بن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، 361، ج2، ص76.

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل 36، وقد أيّدهم الله عز وجل بوحي من عنده،قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء 25 فدعوا الناس إلى التوحيد وعبادة الله وحده وتحذيرهم من الشرك بالله، وبينوا لهم الدين القويم الذي ارتضاه الله لعباده، حتى لا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل، قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ النساء 165.

فكل الأنبياء دينهم واحد هو التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، وهو ما يُسمّى الإسلام بمعناه العام، فقد دعوا الخلق إلى عبادة الله، وذكروهم بالنشأة والمصير، وحوّلوا اهتمامهم من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية. حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم، بالمنهج الشامل والكامل، لهداية الناس إلى ما يصلح دنياهم وآخرتهم، للفوز بالجنة وتحذيرهم من عذاب النار يوم القيامة.

وجاء في صحيح مسلم: "أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال ذات يوم في خطبته :ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ،وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ،وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا..." [1] فالأصل في عباد الله من بني آدم أنهم كانوا على الحنيفية يوحدون الله[2]، ثم ظهر الانحراف والوثنية، وقد كان لإبليس دور كبير في ذلك، فهو الذي أعلن أنه عدو لبني آدم وأنّه سيغويهم قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ص 82-83 .
فالتصور الاسلامي كما يقول عبد الله علي سمك: "ينطلق من قاعدة أساسية تتلخّص في أنّ الأصل في بني آدم هو إيمانهم بالله الواحد الأحد، فالتوحيد هو الأصل، وأن الشرك والوثنية طرأت على بني آدم" [3]

وما يظهر في قصة نبي الله نوح عليه السلام وطلبه نجاة أحد أبناءه قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هود 45 فقد نجا نوح وأبناءه إلا أحدهم كان من الكافرين، ولم يؤمن بما أُرسل به نوح عليه السلام. وهذا دليل على أن أبناء نوح الذين ركبوا معه السفينة وكانت منهم البشرية، كانوا يؤمنون بما بعث الله به نوح والأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وعلى رأسها عقيدة التوحيد.

فخلافا للمقولات والتفسيرات المادية والوضعية للتاريخ، نجد القرآن الكريم يعتبر أنّ التاريخ البشري كان ميدان حركة جادّة لإقامة الإيمان على التوحيد واليقين بالآخرة، وأن الشخصيات البارزة فيه هم الأنبياء، بداية من آدم أبو البشر، مرورا بنوح، ومن جاء بعدهم عليهم السلام، متّفقون على الدعوة للتوحيد. ولذلك فإنّ القرآن حينما يدعو الناس للإسلام، خاصة أهل الكتاب منهم، فإنّه يبيّن أنّه يدعوهم إلى الأصول الإيمانية التي يقوم عليها الدين الذي ينتسبون إليه قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا

[1] مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ج4، ص 2197، رقم الحديث:2865.

[2] عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن الكريم، 1973

[3] عبد الله سمك، المنهجية في دراسة الأديان الوضعية، ص 18

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ العنكبوت 46 فإذا تعجب أهل الكتاب وقالوا: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ**﴾ ص 7، يُبين القرآن أنّ ما قاسوا عليه هو المحرّف من الدين ﴿ **وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ آل عمران 78 [1]

وقد استمر الناس موّحدين إلى زمن سيدنا نوح عليه السلام، ثم انحرفوا إلى عبادة الأوثان. وقد ثبت أنّهم انتقلوا إلى الوثنية بالتدرج، يقول شيبة الحمد بعد أن يذكر قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى** (118) **وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى...** ﴾ طه 118-122، التي تبيّن الحقيقة القرآنية عن آدم والتوحيد: "فهبط آدم أبو البشر إلى الأرض نبيّا كريما مؤمنا بالله وحده يعبده لا شريك له ويدعو إلى إخلاص التوحيد له. وقد استمر هذا التوحيد الحق هو دين ذرية آدم إلى الأمّة التي بعث إليها نوح عليه السلام، فقد انحرفت هذه الأمّة عن التوحيد إلى عبادة الأوثان، وقد ثبت أنّهم انتقلوا إلى الوثنية على التدرج. فقد كان في أوائلهم رجال صالحون مؤمنون بالله فلما ماتوا عظّموا قبورهم وأوحى إليهم الشيطان أن يصوّروهم ليكون ذلك أدعى إلى تذكرهم والاقتداء بهم، ثم بعد طول الزمن أوحى إليهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه القبور فعكفوا عندها وتوجهوا إلى أصحابها بالضراعة والاستغاثة والاستعانة والسؤال فيما لا يقدر عليه إلا فاطر السماوات والأرض"[2]، وعلى اعتبار أن البشرية تكاثرت من أبناء نوح، تكون الوثنية قد ظهرت عند قومه بعد التوحيد، ثم انتشرت مع توسع المجتمعات البشرية شرقا وغربا.

5. الرؤية الغربية الوضعية للتاريخ البشري وتاريخ المعتقدات والأديان

التدين أمر فطري في النّفس البشرية، حتى أنّ الدراسات أثبتت بأنّه ما من جماعة بشرية عبر التاريخ إلا ولها شكل من أشكال التدين. وبعد أن كانت الكلمة في الغرب لرجال الدين المسيحي للبتّ في مختلف القضايا بما فيها المعرفية المتعلقة بالرؤية الكونية، ظهرت بعد الثورة على الكنيسة ورجالها في الغرب، مساعي للبحث عن مصدر آخر للمعرفة، بعد أن كان الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد عندهم، أصبح العقل البشري والحواس والتجربة هي مصادر المعرفة لديهم. وجعلت كمصادر أساسية قادرة على الإجابة على أي سؤال، من ذلك سؤال نشأة الدين والقضايا المتعلقة به. فتوجهت الأبحاث إلى اعتماد مناهج علم الاجتماع والبحوث الأنثروبولوجية، التي تبحث في واقع الناس والمجتمع، ودراسة ما يسمّى بالمجتمعات البدائية في بعض المناطق من عالمنا المعاصر، في أستراليا، إفريقيا، أمريكا وآسيا، كبديل وعيّنة عن المجتمعات البشرية الأولى. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ قياس البدائية القديمة على ما يسمّى بالبدائية المتأخرة في بعض المجتمعات المعاصرة هو قياس فاسد[3].

فلا يمكن التأكيد أو الجزم بأن ما تعرفه وتقوله المجتمعات المدروسة اليوم كعيّنة، هو نفسه ما

---

1 ينظر: عبد الرحمان الزنيدي، مناهج البحث في العقيدة الإسلامية، ص 373.

2 عبد القادر الحمد، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، ص 16.

3 عبد الله سمك، المنهجية في دراسة الأديان الوضعية، ص44.

عاشته المجتمعات البشرية الأولى، وعليه لا يمكن إسقاط نتائج تلك البحوث على المجتمعات البشرية الأولى. ومن جهة ثانية لا يمكن تعميم النتائج على مجمل التاريخ البشري.

وقد ارتبطت تلك البحوث بما فيها البحث في تاريخ البشرية ومراحلها وحِقبها الزمنية وما إلى ذلك بالرؤية الوضعية الغربية. تلك الدراسات التجريبية التي تبحث في واقع المجتمعات البدائية المعاصرة كعينة، والبحث في مختلف المجالات كالجيولوجيا والحفريات والآثار، تذهب إلى أن عمر الأرض يقدر بنحو ألفي مليون سنة، وأن الحياة ظهرت فوقها في نحو أربعمئة وخمسين مليون سنة، وأن الإنسان البدائي ظهر قبل ربع مليون سنة، أما ظهور الإنسان القديم فقد كان قبل مائة ألف سنة، وظهوره كإنسان حقيقي كان قبل ثلاثين ألف سنة على أقل تقدير[1].

ويظهر بوضوح في هذه الرؤية فكرة تطور الإنسان، من إنسان بدائي إلى قديم ثم ظهر بعدها الإنسان الحقيقي. وهذه الرؤية تأخذ بها كثير من الدراسات في مجالات العلوم الإنسانية، خاصة منها التاريخية، بما فيها الدراسات في مجال تاريخ الأديان. هذه الرؤية تتكلم عن الإنسان البدائي، وتطلق عليه اسم الإنسان المتوحش، تخالف في أصلها الرؤية الدينية القائلة بأن آدم أبو البشر قد خُلق في أحسن هيئة، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ **التين 4**.

وتذهب الرؤية الغربية الوضعية إلى أنّ الانسان تدرج في القدرة على الكلام والتواصل وتحديد المعاني الخاصة بالألفاظ، وأنّ كل ذلك لم يحصل إلا بعد أن نشأ دماغه وتكامل عقله، أي أنّه قد تدرج في سلم التفاهم مع بعضه على عدة أدوار، تدرجّ خلالها من الإشارة إلى الأصوات ثم الألفاظ فالجمل[2].

وهذا التصوّر كذلك يخالف الحقيقة القرآنية التي تقول أنّ الله علّم آدم الأسماء كلّها،قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ **البقرة 31**، وإن اختلفت الآراء في تفسير هذه الآية، فظاهرها يقول أنّ الله علّم آدم الأسماء كلها، وتميل آراء أخرى إلى أنّ المقصود أنّه أعطاه القدرة على الترميز والتسمية وابتكار الأسماء، أي أنّ آدم وذريته لهم قدرة على بناء اللغات وتفريعها [3]

وفي كل الحالات قد يكون آدم خصّه الله بقدرة معرفة الأسماء كلّها، مع القدرة على بناء اللغات والنطق بها وربط الكلمات بالمعاني، فهذه القدرة موجودة مع أبو البشر ومع ذريته منذ البداية، حسب الرؤية القرآنية. التي تقول كذلك أنّ آدم وذريته عاشوا زمنا طويلا على طبيعة فطرية يمتازون فيها عن سائر الحيوانات بنور العقل وقوة الإدراك، وبهما تدرّجوا في سلم الرقي المتواصل والتطور، حتى ظهرت الحضارة شيئا فشيئا، فارتقت معهم وسائل الحياة ومقوماتها[4].

وفيما يخص نشأة الأديان وبداية التدين، فقد برزت في العالم الغربي فكرتان، تقول الأولى بفطرية

---

[1] فاروق الدملوجي، تاريخ الأديان .الآلهية والأهلة، ص73.
[2] المرجع نفسه، ص90.
[3] ينظر: مصطفى الحسن، موجز في طبيعة النص القرآني، وينظر أيضا: خليل طاهر، الأديان والانسان منذ مهبط آدم، الإسلام، ص 58.
[4] طاهر خليل، الأديان والانسان منذ مهبط آدم، ص 67.

التوحيد وأصالته (والكلام هنا عن الإله الواحد، أو الإله الأعلى، أو الإله الأعظم، بغض النظر عن حقيقته) ومن أبرز أعلام هذا التوجه نجد كل من: لانج، شريدر، بروكلمان، لورواه، كاترفاج وشميت. أما الفكرة الثانية فتقول بتطور المعتقدات والأفكار، قياسا على تطور العلوم والصناعات، فالأديان عند هؤلاء تطورت من صورة ساذجة فيها الخرافة والوثنية، ثم أخذت في الارتقاء وصولا إلى الكمال ممثلا في التوحيد. وقد قال بذلك أنصار مذهب التطور التقدّمي، الذي ساد أوربا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلوم، وطبّقه على تاريخ الأديان العديد من الباحثين منهم: سبنسر، تايلور، فريزر ودوركهايم[1]. والانتشار الواسع الذي عرفه مذهب التطور لاحظه الكثيرون، حتى أنّ العقاد بعد نظره في أبرز المذاهب الغربية الحديثة ورؤاها الكونية وخاصة في قضية نشوء الكون، اعتبر أنّها كلها تدين بالتطور (أي أنها تنطلق من مبدأ التطور) أو تقول بالتغير من البسيط إلى المركب ومن وضيع إلى رفيع[2].

وقد يكون سبب ذلك هو أن مفهوم التقدم حاضر دائما في الرؤية الغربية ومخرجاتها، وتقوم مختلف المؤسسات الغربية بترسيخه والتأكيد عليه بكل الطرق والوسائل، وتتظافر جهودها لنشره على المستوى العالمي. وقد أصبح مفهوم التقدم أساسي في الفكر الغربي، منذ أن آمن به فلاسفة التنوير أمثال فولتير ومنتسكيو وكوندورسيه وغيرهم. فاعتبر كوندورسيه (1743-1794م) أنّ التقدم يُعبِّر عن قانون التاريخ نفسه، وأنّ إنسان المستقبل سيكون أقوى وأسعد وأكثر ذكاء من إنسان زمانه [3]، وهذا ما جعلهم يعتقدون بأن الانسان الأول والمجتمعات الأولى، لم تكن أفكارهم ومعتقداتهم ناضجة ومكتملة وواضحة، خاصة حول موضوع الألوهية.

ورغم أن نظرية دارون (1809-1882م) والقول بأن الإنسان قد تطوّر بعد أن مرّ بمرحلة القرود البشرية، هذه النظرية ذهب بريقها، وخفّ حضورها في مختلف الأوساط، إلا أنّها عززت من حضور مبدأ التطور في مختلف المجالات الفكرية [4]، فقصة النشوء الذاتي التي اخترعها (دارون) وسادت الفكر الغربي، أصبحت محورا لفلسفات عديدة، والأساس لمجمل الفكر والسلوك الغربي المعاصر. وأدّت إلى رسوخ الإلحاد، فهي تكذيب للدّين المسيحي، الذي يَعتبر بناءً على ما ورد في سفر التكوين، أنّ آدم الذي خلقه الله من طين، هو أبو البشر جميعا. ونتيجة لانتشار نظرية النشوء والاتقاء، ظهر القول بحتمية التطور والتقدّم، التي يُردّدها جميع الماديين ومن تأثّر بهم[5]، بل أصبحت نظرية التطور البيولوجية فكرة فلسفية داعية إلى التطور المطلق، في كل شيء، وأنّه تطوّر لا غاية له ولا حدود، وانعكس ذلك على الدين والقيم والتقاليد، وساد الاعتقاد بأن كل عقيدة أو نظام أو خلق هو أفضل وأكمل من غيره،

[1] محمد دراز، الدين، ص 149-151
[2] عباس محمود العقاد، الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، ص 281.
[3] السيد محمد بدوي، مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري، ص 26
[4] محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، ص 123.121
[5] سعيد الغامدي، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ص 1549.1548.

ما دام تاليا له في الوجود الزمني[1].

وإجمالا فأبرز المدارس الغربية التي درست تاريخ البشر وتاريخ الأديان، هي أولا (المدرسة الفيلولوجية)، التي تستند إلى الاشتقاقات بين اللغات، اعتماداً على الوثائق الأدبية والوثائق والكتب الدينية المقدّسة، بداية بـ(الفيدا الهندية)على اعتبار أنّها أقدم وثيقة دينية، فيها مفهوم ديني. والمدرسة الثانية هي (الأنتروبولوجية) في إنجلترا وألمانيا، تدرس المجتمع البشري من الناحية الانتروبولوجية والاجتماعية، وتهتم بالثقافات وكل ما يتعلق بالمجتمعات البشرية، وهي تعتمد على تفسير معتقدات الشعوب. أما المدسة الثالثة فهي المدرسة (الاجتماعية) التي أسّسها (أوغست كونت) في فرنسا، فانتشرت بسرعة بين علماء الاجتماع والباحثين في تاريخ الأديان. وما يجمع هذه المدارس هو الاعتماد على مبدأ التطور والتأكيد على حضوره في تاريخ الفكر والنشأة البشرية ومختلف جوانب الحياة. وقد تأثّر علماء الأديان بهذه النظرية، فقالوا بأنّ الدين أيضا سلك على مرّ القرون مسلك التطور، وأن بداية الدين كانت فكرة ساذجة، ثم أخذت في التطور إلى أن بلغت مرحلة الكمال [2]، وقد اعتمد آخرون على المنهج التاريخي، بعد أن بلور معالمه (راتسل)، ثم توسع استعماله في مختلف الأوساط العلمية في أوربا، فاعتمد عليه في دراسة تاريخ الأديان [3]

وقد امتد الفهم الكونتي للفلسفة الوضعية إلى فريق من العلماء في القرن التاسع عشر، منهم (ماخ)، (هرتز) و(هنري بوانكاريه) وغيرهم، ممّن فهموا الوضعية بالمعنى العلمي المنهجي خارج علم الاجتماع، وإن كانوا قد شكلوا بعض جوانبه المنهجية بعد ذلك، من خلال تأثيرهم في فلسفة العلم ونظرية المعرفة. وقد استفاد هؤلاء من آراء (كونت) وتحليلات (دفيد هيوم) ونقدية (كانط)، وأطلقوا على أنفسهم اسم (الوضعيون). وقد أدّى كل ذلك إلى بناء رؤية للعالم ترتكز على المادي والمحسوس ونفي كل ما هو غيبي. فاستندت رؤيتهم إلى مقولات (أرسطو) المادية، ووجدوا بغيتهم في مقولات (دارون) عن النشوء والتطور، للإجابة عن سؤال نشأة الإنسان.

وذهب آخرون للبحث اعتمادا على الدراسات الانتروبولوجية، فيما سمي (بالمجتمعات البدائية المعاصرة). وهكذا أصبح التطور الخطي ملازما لكل القضايا المعرفية، الدينية منها والعلمية. ويقوم قانون التطور العقلي الكونتي على أنّ العقل الإنساني أو التفكير الإنساني، قد انتقل في الإدراك لكل فروع المعرفة عبر ثلاث مراحل، وهي المرحلة اللاهوتية ثم المرحلة الميتافيزيقية ثم المرحلة الوضعية. وأن هذا التطور وقع في تاريخ الدين كذلك، فتطور من الدين البدائي المادي إلى الدين الإحيائي، وصولا إلى الدين الوضعي الذي ينشأ عن المجتمع نفسه، وهو ما تصوّره كونت ودوركايم.[4].

لقد كان للمدرسة الفرنسية ونظرية الأدوار الثلاث لأوغست كونت أثرها على تفسير تدين الشعوب

[1] حسن عبد الرحمان، الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان، ج2، ص 915.
[2] طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، ص 52-54.
[3] علي سامي النشار، نشأة الدين . النظريات التطورية والمؤلهة، ص 220.215
[4] طارق عبد السلام، الأصول المعرفية لمناهج البحث، ص 89-92.

وحقيقة الأديان. فنظرية الأدوار الثلاث تَعتبر أن الفكر والعقلية البشرية تطورت من دور الفلسفة الدينية، حيث كانت البشرية في مرحلة طفولتها، تعلّل فيها الظواهر الكونية بقوى إرادية غيبية خارجة عنها، ثم انتقلت الإنسانية بعدها في مرحلة مراهقتها إلى دور الفلسفة التجريدية، فأصبحت تُعلّل الظواهر الكونية بمعانٍ عامة، وخصائص طبيعية كامنة فيها، كقوة النمو والمرونة والحيوية وغيرها. فلمّا بلغت الإنسانية رشدها انتقلت إلى دور الفلسفة الواقعية، وتطبيق العلوم التجريبية، رافضة كل تفسير خارجي أو داخلي، مكتفية بتسجيل الحوادث كما هي، ومعرفة ما بينها من ترابط وجودي، بغضّ النظر عن أسبابها وغاياتها. واعتُبرت هذه المرحلة هي الأخيرة والأسمى.

هذه الأدوار أو المراحل الثلاث يعتبرها محمد عبد الله دراز ثلاث نزعات، لم تكن في تاريخ الإنسانية تمثل مراحل متعاقبة، بل نزعات أو توجهات متعاصرة في كل الشعوب. وليست كلها على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول، ولكنها متقلّبة. كما أنّها هذه النزعات الثلاث متعاصرة ومتجاورة في نفس كل فرد، ولها وظائف يكمّل بعضها بعضاً في إقامة الحياة الإنسانية، ولكل منها مجال يوائمها تفسّر به حوادثه[1].

وهناك من سمّى المراحل الأولى في قانون المراحل الثلاث، بالمرحلة (الخرافية أو الأسطورية)، لأن الإنسان اعتمد فيها على الخيال والأساطير والطلاسم والخزعبلات، واختفى فيها العنصر العقلي أو الفكري المنظّم. وإلى هذه المرحلة ينسب الدّين برمته، على اعتبار أنه ثمرة هذه المرحلة الأسطورية الخرافية، ولذلك فهي لا تمثل شيئا من الحقيقة. أمّا الدّين فقد أدّى الغرض منه في هذه المرحلة، فلمّا استنفد أغراضه أتت مرحلة أخرى أرقى منه وأكثر إيفاءً بحاجات الإنسان وأغراضه، وهي المرحلة (الفلسفية أو الميتافيزيقية)، بدأ فيها العقل يؤدي دوره في معظم الأحيان، ولكنه بقي مكبّلا ببعض القضايا والمشكلات التي خلّفها له الدين. ولذا لم يكن التفكير تفكيرا عاليا وإنما كان تفكيرا ميتافيزيقيا يعتني بالغيبيات وما لا سبيل إلى التحقق منه. وقد أدّت هذه المرحلة دورها هي الأخرى واستنفدت أغراضها ولم تعد صالحة لأن تستمر، فجاءت المرحلة الثالثة والأخيرة، التي نحيا في ظلّها، وهي المرحلة العالية الراقية. هذه المرحلة يقوم البحث فيها على التجربة والاتصال بالواقع، وهم يعتبرون هذه المرحلة أنجح المراحل جميعا، لأنها أثمرت المخترعات الباهرة، وأنّها ستبقى هي الطريقة المثلى لتلبية حاجات الإنسان وحلّ مشكلاته، وتحسين حياته وتطوير واقعه بما يحقّق له الخير[2].

ومما يُبطل هذه النظرية أن شواهد هذه المراحل الثلاث المزعومة، موجودة معاً في حياتنا المعاصرة، حيث يوجد الدين وتوجد الفلسفة والميتافيزيقا كما يوجد العلم، ولم يستطع العلم أن يسُدّ مسدّ الطرفين الآخرين، ولا يمكن له تحقيق ذلك[3]، ويؤكد محمد كمال جعفر أن صحة فكرة التطور قد تنطبق على دين معين، وقد تنطبق على الأديان جميعاً إذا أريد بها سير تلك الأديان، خصوصا في المجال

---

[1] محمد دراز، الدين، ص 116-117

[2] محمد كمال جعفر، الإنسان والأديان، ص 165-166.

[3] المرجع السابق، ص38.

التطبيقي، بخطوات متدرجة توازي نمو الإنسان الفكري والاجتماعي، دون أن نذهب إلى كون الدين قد اخترع في فترة خاصة من هذا النمو، ليحلّ محلّه في مرحلة نمو أخرى شيء آخر، هو العقل أو الفكر أو الفلسفة. ودون أن نعتبر أن الدّين ظاهرة اجتماعية من صنع المجتمع، ولا صلة له بالحقيقة الموضوعية المرتبطة بالوحي أو بالإله[1].

ومع دوركايم (1858. 1917م) الذي ورث علم الاجتماع بهيئته الوضعية من أوغست كونت (1798. 1857م)، بدأ القول بفلسفة العقل الجمعي، وأنّ العقل المشترك للمجتمع هو الموجِّه لكل فرد فيه، ومكوّن كل فكرة عنده، ومُنشئ المذاهب والعادات والمفاهيم. وقد أخذ الماركسيون عن دوركايم كل ذلك، وجعلوه أساسا للماركسية. فانتشرت في الغرب رؤية وضعية، أساسها تصور مادي إلحادي أو جبرية اقتصادية ماركسية. وعلى أساسها يتم تفسير الدين والأخلاق ومختلف القضايا، مع إلغاء الفطرة الإنسانية التي تنزع إلى الإيمان بالله عز وجل[2].

ويُعدّ هيجل (1770. 1831م) وهو من محركي الفكر الغربي الحديث، من أبرز من قالوا بفكرة التطوّر. وهو لا يؤمن بإله مفارق عليم بكل شيء، وقادر على كل شيء منذ الأزل، وإلى الأبد. بل هو يؤمن بقوة تعمل على تطور الكون المادي وعلى تشكيل الإنسان بشكلها الخاص. وفي المقابل فإن تلك القوة تجد تعبيرها في روح الإنسان. ولذا تُسمّى بآخر صورة تظهر فيها، وأعلى اسم تصل إليه. ففكرة الألوهية عند هيجل تطورت مع الروح الإنسانية. وفي هذا القول من التناقض والتخبط ما فيه، إذ أنّه يخلط بين تصور الإله الحق، وبين ما يعتقده الناس ويتصورونه حول حقيقة الألوهية[3]. وفيما يخص الفكر الديني، ذهب جون لوبوك (1834. 1913م) المتأثر بنظرية التطور، إلى أن جميع الشعوب مرت دينيا بالمراحل الآتية: لا دين، فوثنية، فعبادة الطبيعية أو الطوطمية والاعتقاد بآلهة متعالية أقوى قدرة من البشر، ذات طبائع مختلفة، ثم ظهرت عبادة الأصنام، ثم انبثاق فكرة الإله الخلاق[4] (الهاشمي، 1963، صفحة 153). وأصبح هذا هو التصور السائد في الفكر الغربي، بعد اكتساح الرؤية الغربية الوضعية الالحادية لأغلب الأوساط الغربية.

فنجد أن فرويد (1856. 1939م) صاحب نظرية التحليل النفسي، الذي ألّف آخر كتبه (موسى والوحدانية) قابل فيه بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية، وانتهى فيه إلى أنّ (موسى عليه السلام) تربّى في مصر في ظل التوحيد، وأنّه نشأ في أعقاب معركة بين(أتون)و(أمون)، فاستعدّ للنبوة في بيئة إسرائيلية موحدّة، فعلم بني إسرائيل كيف يوحدّون الله ويعظّمون صفاته وآلاءه، بعد أن تأثّر كثير منهم بعقائد المصريين وشعائرهم، قبل عهد اخناتون وبعده. ثم خرج (موسى عليه السلام) ببني إسرائيل فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، في الجيل التالي لانتشار التوحيد بالبلاد

[1] المرجع السابق، ص295.
[2] سعيد الغامدي، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ص 2103-2105.
[3] محمد كمال جعفر، الإنسان والأديان، ص 138.
[4] طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، ص 153.

المصرية[1].

وممن ذهب إلى هذا الرأي، نجد جيمس هنري برستيد (1865. 1935م)، صاحب كتاب (تطور الدين والفكر في مصر القديمة) والعالم الألماني كروت زيته (1869. 1934م)، وكلاهما اهتم بدراسة تاريخ مصر وديانتها القديمة. فبرستيد مثلا، ينطلق من ذيوع مبدأ التطور محاولا تطبيق أصوله خارج النطاق البيولوجي، على جميع جوانب الحياة الإنسانية من لغة وفن وفكر ودين وسياسة ومجتمع. وهو كغيره من الأوربيين الكُثر الذين درسوا الأديان اعتمادا على نظرية التطور، يفترض أنّ البداية كانت ساذجة وأنّها تقوم على تخيلات غامضة وصبيانية للدين، ثم تدرجت في النضج والكمال إلى أن يصبح بناءً تركيبيا تمتزج فيه الأفكار والعواطف والمشاعر والمواقف الفردية والاجتماعية، مكوّنة بذلك نسيجا متعدّد الألوان يعكس الحضارة والإنجاز الذي حققه الإنسان في بيئة معينة. وهو كغيره ممن يأخذون بهذا المنحى وهذه الرؤية الغربية للفكر الديني، يعتبر أن التوحيد في الألوهية ظهر مع الفراعنة بعد مسار طويل في الفكر الديني[2]

وجدير بالذكر أنه من بين الباحثين الغربيين من قال بنظريات أخرى كنظرية التردّي ونظرية الركود. أي أنّ الحضارات البشرية فيها من مرّ بمراحل ركود، ومنها من وصل إلى مرحلة تردّي، وكان بالإمكان أن يقال بناء على نظرية التردّي، أنّ الفكر الديني قد تردىّ فبعد أن كان المجتمع البشري الأول، موحد في الألوهية تردّى إلى التعدّدية وغيرها من أشكال التأليه. وإذا كان الفكر متطوّر، فتطوره يكون من البسيط إلى المعقّد، ومن الوحدة إلى الكثرة، مع بقاء التوحيد حاضر دائما على مرّ العصور، وتشهد على ذلك رسالات الأنبياء المتعاقبة.

وممن تكلّم عن التوحيد كأصل، نجد الألماني ماكس مولر(1822 . 1900م) المتخصص في اللغات ومعاني الأساطير، الذي يُعدّ (أب مقارنة الأديان) في الغرب، فهو يقول: "إنّ النّاس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص، وإنّ الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين"[3]. ويقول ماكس مولر كذلك: "... مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء فلن يفوتنا أن نتبين أنّ منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه منذ أوائل عهده، وأنّ القول بإنسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية إنّما هو قول لن يقوم عليه دليل". وعليه يجد العقاد أن مولر يُرجح أنّ الإنسان قد تديّن منذ أوائل عهده، لأنّه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد الذي ليس له انتهاء، وأنّه مثّل لهذه الروعة بأعظم ما يراه في الكون وهو الشمس التي تملأ الفضاء بالضياء، فهو محور الأساطير والعقائد. وهو ما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات[4].

والملاحظ أن مولر هنا ورغم أنه يرفض تطور الإنسان انطلاقا من البهيمية، وما ينبني عليها من

[1] عباس محمود العقاد، الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، ص 70.
[2] ينظر: محمد كمال جعفر، الإنسان والأديان، دراسة ومقارنة، ص 104،105،277،278.
[3] جول لابوم، تفصيل آيات القرآن الحكيم ، صفحة 6.
[4] عباس العقاد، الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، ص 24.

صورة نمطية، تجعل ذلك الإنسان لا عقلاني وغير مدرك لما حوله، وتأكيده أنّ ذلك الإنسان منذ بداياته كان متديّن، لكنه تديّن غير واضح وهو في بدايته، لأن ذلك الإنسان لا زال حينها يتحسّسه ويسعى لبلورة تصوّره الديني. ويرجع ذلك للإعراض عمّا يرويه الكتاب المقدس، من أنّ الأنبياء عبدوا الله الواحد منذ آدم عليه السلام، الذي عرف الله وأنّه هو الخالق والمدبّر للكون، وخضع له في الجنّة قبل أن ينزل إلى الأرض.

وممّن قال بأن التوحيد لم يكن نهاية التطور الديني، بل هو بداية الاعتقاد في الأديان، نجد منهم (أندريو لانج) الذي قال بأنّ الانسان البدائي اعتقد بإله متعالي (الإله الأسمى)، وأيّده في ذلك (ويلهيلم شميت)[1]. ومنهم كذلك الباحث الإيطالي (رفائيل بتاتسوني) سنة 1922، ثم قال الفرنسي (فوكار) بأن تصوّر إله السماء يمتد إلى أقدم العصور البشرية، إلا أنّه لم يُجزم بأنّه لم تكن هناك تصورات قبله للألوهية. وكل هؤلاء الباحثين اعتبروا أن فكرة التأليه سبقت فكرة الروحية والطبيعية والوثنية والشرك على اختلاف أنواعه، وأنّها جميعا انبثقت من فكرة الإله المتعالي، لأنّها أول فكرة للدّين.

كما أن (بتاتسوني) نقض نظرية التطور في الأديان، انطلاقا من أن الشرك لم يتطور في كل مكان إلى التوحيد، بدليل أنّ المشركين ظل كثير منهم مشركين رغم مرور آلاف السنين. وهو ما نجد في دين الصينيين وفي البرهمية والهندوسية الحديثة والبوذية، بينما انقلبت شعوب أخرى من الشرك إلى أديان أخرى مثل انقلاب اليونان من الشرك إلى المسيحية أو انقلاب بعض القبائل الافريقية من المعتقدات الروحية وهي أحط دركات الدين، إلى الاسلام وهو أعلى درجات التوحيد، دون أن تمر بمرحلة الشرك. فحقائق التاريخ تلك تنسف نظرية تايلور(1832. 1917م) الكلاسيكية القائلة بأن الأديان تمر بثلاث مراحل: الروحية فالشرك فالتوحيد[2].

وتجدر الإشارة إلى أن ويلهيلم شميث (1868. 1954م) ومن ذهب إلى مذهبه، لا يتكلمون عن التوحيد الخالص الذي قال به الأنبياء، بل هم يتكلمون حسب ما يذكره (هوستن سميث) عن إله خالق متعالي آمنت به الشعوب منذ القدم، فكان لديها شعور بوجوده، ويؤمنون بأنه يعمل في الكون من خلال مندوبيه. وقد تكون بعض الشعوب أمنت بأن هناك معه آلهة صغيرة. والمؤلف هنا وبعد كلامه عن معتقدات ما يسمّى بالشعوب البدائية، يشير إلى أنها لم تكن همجية ولا وحشية ولا غير متمدنة، بل هي أقل وحشية من بعض الشعوب الحديثة (وهو يمثل بما فعله فاتحو أمريكا مع الهنود الحمر، وما فعله النازيون مع اليهود في ألمانيا) وأنّ تلك الشعوب لم تكن متخلّفة بل مختلفة[3].

ونجد أن (هوستن سميث) كغيره من الغربيين الذين درسوا الأديان، يبدأ كلامه عنها في كتابه هذا بالترتيب الشائع، الذي يُعزّز فكرة أنّ التوحيد عرفته البشرية بعد معتقدات الأديان الوضعية. فهوستن يبدأ في كتابه هذا بالهندوسية ثم البوذية والكونفشيوسية والطاوية، ليأتي بعدها الكلام عن

---

[1] ينظر: علي النشار، نشأة الدين، ص 181،197.

[2] طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، ص 147-152.

[3] هوستن سميث، أديان العالم. دراسة تحليلية روحية، ص 559،555.

اليهودية والمسيحية ثم الإسلام، ثم يختم دراسته بما يسمّيه بالأديان البدائية، التي أخّرها لأنّ ما يتعلق بها يُستنبط اليوم من القبائل المعاصرة، التي بقيت على تقاليدها الأولى وبدائيتها مقارنة بالتمدن الذي تعيشه غيرها من شعوب العالم.

ومن النماذج الغربية الذين درسوا تاريخ الأديان وفق هذه الرؤية، نجد (روجيه غارودي) وهو الفيلسوف والمفكر الفرنسي الشهير الذي يذهب إلى أنّ: "عقيدة التوحيد هي ثمرة عملية نضج طويلة المدى للحضارات العظمى في الشرق الأوسط، ولاسيما حضارة بلاد ما بين النهرين والحضارة المصرية... ديانات الشرق الأوسط، التي نمت في أحضانها بذور التوحيد، كما تشكّل العبرانيون في ظلها، وذلك بحكم أسبقيتها التاريخية. بيد أن السعي صوب التوحيد كان أقدم عهداً في بعض الحضارات الأخرى غير الأوربية"[1]. وهو يَعتبر - قبل إسلامه - أنّ الهندوسية هي أم الأديان، وأنّ الإسلام هو خُلاصة التجربة الشاملة للإنسانية[2]. ولذلك تجده ينساق إلى الترتيب الشائع عند أغلب الباحثين في تاريخ الأديان، فيبدأ بالديانات الوضعية (المصرية، الزردشتية، الهندوسية، البوذية، الطاوية) ثم ينتقل إلى الأديان السماوية (اليهودية، المسيحية ثم الإسلام). دون أي إشارة إلى ديانة الأنبياء منذ آدم عليه السلام، رغم إيمانه بهم.

وكنموذج آخر لما ترسّخ في الفكر الغربي عن عقيدة التوحيد ورسالة الأنبياء، نشير إلى أن روجيه غارودي ذكر أن المستشرق (دوسو) يقول في كتابه (الأصول الكنعانية للتضحية عند الإسرائيليين): "إن مبدأ التوحيد الذي يجتهد كهنة إسرائيل في أن يعزوه إلى موسى هو عقيدة متأخرة نسبياً... هذا ولم يكن الإسرائيليون في عهد داوود وسليمان قد عرفوا التوحيد بعد"[3]. ويظهر في هذا الكلام غياب تام لفكرة التوحيد في رسالة الأنبياء، وأن عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بعد مختلف العقائد الأخرى في الألوهية.

6. تأثر المفكرين المسلمين بالرؤية الدينية الغربية الآخذة بمبدأ التطور

رغم أن الدراسات الغربية للأديان اعتمدت على عدد من المناهج المختلفة، كالمنهج التاريخي المقارن والمنهج السيكولوجي والمنهج الفينومينولوجي والمنهج الأنتروبولوجي الاجتماعي، لكن النتائج كانت مضطربة، ولم تقدم رأيا قاطعا[4]. فمع المنهج التاريخي المقارن، تم تتبّع مسار ظهور الأديان ونشأتها وتطوّرها وانتشارها، ثمّ المقارنة بينها في مختلف تلك الأطوار والجوانب الدينية. ومع المنهج السيكولوجي، تم رصد التصورات الدينية المرتبطة بالحالة النفسية للأفراد والجماعات وممارساتهم الدينية، ومع المنهج الفينومينولوجي دُرس الدّين ومعتقدات الإنسان كظاهرة في المجتمع، لتحديد معالمه انطلاقا من مظاهر تديّن الشعوب وكل ما يرتبط به من طقوس وعبادات وأفكار وتصورات. وباستخدام المنهج

[1] روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 61،56.
[2] روجيه غارودي، نداء إلى الأحياء، ص 215،209.
[3] روجيه غارودي، فلسطين أرض الرسالات، ص 91.
[4] سلامة، نظرة على دراسة الدين في الغرب في العصر الحديث، ص 11

الأنثروبولوجي الاجتماعي تمت دراسة واقع المجتمعات وعاداتها وتقاليدها وتراثها وممارساتها وعلاقتها بأديانهم.

فبعد أن سادت نظرية التطور وفكرة التقدم (التقدمية) أوربا في القرن التاسع عشر، كثير من فروع العلم والمعرفة وتم تطبيقها على تاريخ الأديان، اختلفت الدراسات في تعيين الصورة والطابع الذي كانت عليه العبادة الأولى وموضوعها في هذه الأديان. وذهب بعضم إلى أن الصور المتدنية (يسمونها الصورة المنحطة) أو الساذجة للعبادة في العصور القديمة، أو نظيراتها في بعض الجماعات الساذجة، تمثل في الحقيقة الحالة التي كان علها الإنسان الأول، وأنها نقطة انطلاق التدين على الأرض. وهذا غير صحيح، كما أن قانون الحالات الثلاث الذي دافع عنه كل من دوركايم وأوجيست كونت، وإن كان يصلح في بعض المواضع لتفسير التطور الفكري أو الحضاري، فهو لا يصلح لتفسير المسار الحقيقي الذي اتخذه الدين، ولا يصلح أن يكون أساسا للتأريخ للدين[1].

فتلك الدراسات الغربية الحديثة غلَّبت الجانب الكمي والإحصائي التقديري، ثم القيام بتعميم الأحكام. وخلصت إلى أن البشرية بدأت بدائية متوحشة جاهلة. وكثير من هذه الدراسات اعتمدت على البحث في واقع بعض الشعوب في العصر الحديث (القرن 19 و20م) واعتبارها نموذجا، مثل بعض القبائل في أدغال إفريقيا أو أستراليا وأمريكا، ثم أسقطت النتائج على الواقع الذي كانت عليه بدايات البشرية، فهذا الإسقاط هو تكهنات، يعارضها ما جاء في القرآن الكريم والكتاب المقدس عن قصة أبو البشرية، آدم عليه السلام.

وإضافة للانتقادات الشديدة لتلك الدراسات الغربية، التي تقوم على تأسيس المقارنات على أوجه الشبه الملاحظة بين بعض عقائد دين ما وبين ما يسمى "بالاعتقاد البدائي". ينتقد جورج فوكارت (1865. 1943م) مدرسة أكسفورد في طريقتها الأنثروبولوجية والاجتماعية، لأنها تقوم على إجراء مجانب للصواب، فهي مبنية على خطأ مزدوج، أحد شقّيه هو الميل إلى أن يكون الإنسان مذهبياً، وولع بتنظيم وتأسيس المذاهب، والخطأ الثاني هو الوصول لتأكيد مُبالغ فيه على العلاقة بين الأجزاء المنفصلة مثل (القربان، الصلاة، السحر....) دون الأخذ بعين الاعتبار أن هناك ميل عام مشترك، في كل الأديان. كما أن فوكارت يرفض مذهب القائلين بأن الديانات الطبيعية هي نقطة الانطلاق، لأنها لا تصلح أن تكون هي البداية للدين في الحياة البشرية[2]

وقد لاقت تلك الدراسات الغربية والنظريات التي تأسّست علها -خاصة نظرية التطور- نقدا كبير في عالمنا العربي والإسلامي، منها ما بيّنه (علي سامي النشار) في كتابه (نشأة الدين)، الذي نقل فيه آراء أصحاب النظرية التطورية وآراء مذهب المؤلهة الغربيين، وفصل في ردود المؤلهة على التطورية. وممن انتقد رأي التطورية نجد أن (محمد كمال جعفر) في مؤلفاته يؤكد على أن التوحيد عرفه المصريون مع الأنبياء قبل أن يقول به (أخناتون)، رافضا ما تقوله الدراسات الغربية، التي تعتبر أخناتون أول من

[1] محمد كمال جعفر، الانسان والأديان . دراسة ومقارنة، ص 161 . 162 (الهامش).

[2] المرجع نفسه، ص299-300.

بلور فكرة توحيد الإله. فالمعروف أن مصر حظيت في القديم بزيارة العديد من الأنبياء والمرسلين، الذين كانوا بلا شك دعاة توحيد، ومنهم يعقوب وأولاده - خاصة يوسف- عليهم السلام اجتهدوا في نشر هذه العقيدة التي ورثوها عن جدّهم (إبراهيم عليه السلام). ولم ينقطع (يوسف عليه السلام) عن أداء هذه المهمة حتى في السجن إذ يقول لصاحبيه في السجن﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ يوسف 37-38 و قال تعالى: ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ يوسف 39 -40

ويذهب محمد كمال جعفر إلى أن: "في صميم قانون التطور نفسه ما يشير إلى أن التطور لا يكون بالضرورة تقدما بل قد يكون تدهورا. وهذا مما اعترف به مطبقو هذا المنهج أنفسهم، إذ يدرسون عهودا يسمونها عهود التدهور. وما دمنا قد سلمنا بوقوع أو حدوث الانتكاس والتدهور في الحياة البشرية، فما الذي يمنع من الاعتقاد بأنّ من صور هذا التدهور، وهذا التأخر ما أصاب الإنسان عبر العصور السحيقة من نكسات نالت من عقيدة السماء الصافية " [1]. ورغم تلك الملاحظات الدقيقة التي انتقد بها محمد كمال جعفر الرؤية الغربية، نجده ينساق إلى تقسيم تاريخ البشرية إلى مرحلة ما قبل التاريخ ثم مرحلة تاريخية. فهو تقسيم مبني على رفض ما جاءت به الكتب المقدسة، بما فيها القرآن الكريم، التي بينت تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام.

كما أن محمد كمال جعفر يستعمل مصطلح الانسان البدائي بمضامينه الغربية السلبية، فهو يقول: "لقد كان هناك من يتّهم الإنسان ويذمّه بأنّه دائما رهن القيد الثقيل لحواسه، وسجين مادّيته، وأنّه إذا حنّ للجمال فإنّما يسترعي انتباهه منه المظهر الشكلي في اللون والرقة والنعومة وما إليها، وإذا كان لهذا الاتّهام ما يبرّره من حيث تكوّن الإنساني البدائي"[2]، ورغم أنّ هذه الأمور أصبحت مما درج على استعماله الباحثون في العلوم الإنسانية عموما، إلا أنّ الأحرى بالباحثين المسلمين أن يكون لهم تحيزّهم للرؤية الإسلامية ومضامينها ومصطلحاتها وتقسيماتها.

وممن ظهر انسياقهم الواضح للرؤية الغربية ونظرية التطور من المسلمين، نجد (محمود عباس العقّاد) الذي ناقش ما قاله المؤيدون والمعارضون لتلك النظرية في كتابه (الانسان في القرآن الكريم) وخلص إلى القول: "ليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل في خلو كتاب الإسلام (أي القرآن) مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب .. فقد يثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبيل العلم في أية وجهة من هذه الوجهات"[3]. ونجده يقول في كتابه (الله): "ترقّى الإنسان في العقائد كما ترقّى في العلوم والصناعات... وقد أسفر علم

[1] ينظر: المرجع السابق، ص103-108.
[2] المرجع نفسه، ص123.
[3] العقاد، الإنسان في القرآن الكريم، ص 124.

المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية، أو بين أمم الحضارة العريقة، ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك". فلربما صح ذلك عند بعض الشعوب، لكن التأثر بالفكر الغربي، جعله يتكلم عن الانسان الأول، فهل هو إنسان آخر غير آدم عليه السلام؟. فغياب الأنبياء ورسالاتهم التوحيدية غائب هنا، كما غيبته الدراسات الغربية الوضعية. وهو ما يظهر عندما يقول العقاد: "... العالِم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أنّ الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزّهة عن شوائب السخف والغباء إنّما يبحث عن محال"[1].

كما استعمل العقاد فكرة "الانسان الهمجي" لهربرت سبنسر، فقال: "يرى كثير من العلماء أنّ الأساطير هي أصل الدين بين الهمج. وهو رأي لا يرفض كلّه ولا يقبل كلّه. لأن العقائد الهمجية قد تلبّست بالأساطير في جميع القبائل الفطرية (أي الباقية على فطرتها)، فلا يسهل من أجل هذا أن نرفض القول بالعلاقة بين الأسطورة والعقيدة، ولكن يسهل من جهة أخرى أن نطابق بين العقيدة في كل شيء وفي كل خاصة "[2]. ويضيف قائلا: "ويبدو لنا أن القول بإدراك الهمجي (يشير هنا للإنسان في المجتمعات الأولى) لفكرة اللانهائي بعيدة التصديق، وأنّه لو كان قد أدركها قبل أن يتدين لتنزّهت عقائده الأولى عن كثير من السخف الذي لا يجمل بتلك الحقيقة الكبرى، ولا يَسلم من فساد الذوق ولا من العجز عن فهم العظائم التي تتجاوز أفقه الضيق ومعيشته المحدودة" [3]، يقول العقّاد ذلك وبهذه المضامين، فهل نسي أنّ الإنسان الأول هو آدم عليه السلام، وهو الذي علّمه الله وسجدت له الملائكة؟

كما ينساق العقاد إلى رأي القائلين بأن الفكر الديني في قضية الألوهية مرّ بثلاثة أطوار: التعدّد ثمّ التمييز والترجيح لواحد من الآلهة مع بقاء الأخرى، ثم ظهر التوحيد. فهو إذ يعلّق على أنّه ظهر بين هذا وذاك القائلين بالثنائية في التأليه، ويبين أنواع الآلهة التي عبدتها الأمم الماضية عموما، تجده بعدها يذكر كيف وصل المصريون إلى التوحيد، وأنّ التطور في الديانات محقّق لا شكّ فيه، رغم أنّه لم يكن على سلّم واحد متعاقب الدرجات، بل يكون فيه صعود عند أمم من ناحية وهبوط من ناحية أخرى عند غيرهم من الأمم. وخلال كل التحليلات التي قدّمها العقاد وهو يعقّب على آراء الباحثين في مقارنة الأديان، يغيب عنده أسبقية التوحيد عند أبو البشر آدم عليه السلام، بل تجده يذهب إلى أن ديانة الشمس كمعبود واحد سبقت التوحيد الصحيح، وهو يستدل لذلك بقوله تعالى في قصة إبراهيم مع قومه: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ الأنعام 76-79، ويظهر هنا إشكالية

[1] العقاد، الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، ص 16
[2] المرجع نفسه ، ص15.
[3] المرجع نفسه، ص24.

الاعتماد على المصادر الغربية مع تغييب للمصادر الإسلامية. وهو المحذور نفسه الذي وقع فيه (طه الهاشمي) في كتابه (تاريخ الأديان وفلسفتها، وهو في الأصل محاضرات قدمها لطلبته في الجامعة) فقد اعتمد بدوره كما قال، على مصادر أجنبية، ونلاحظ فيه عدم الرجوع إلى المصادر الإسلامية. فذهب إلى أن الآية السابقة الذكر، وصفت إيمان إبراهيم عليه السلام، وأنّه فيها إشارة رمزية إلى فكرة تطور الدين[1].

في حين أن تفاسير القرآن المعتمد تبين أنّ إبراهيم عليه السلام، كان في معرض المحاجة مع قومه ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ الأنعام 83، فالتوحيد ثابت في اعتقاده، وقد كان يُساير تفكير قومه ليحاجّجهم، ولم يكن يجهل حقيقة الله تعالى ولا شاكّا فيه أو يبحث عن حقيقة خالق الكون كما يتبادر للقارئ لظاهر الآية.

وهو ما يذهب إليه (الزمخشري) في تفسيره (الكشاف) و(الرازي) في (التفسير الكبير)، وقد أبدع (الشهرستاني) في كتابه (المِلل والنِّحل) فاستنبط من هذه الآية دلائل التوحيد، كما يقول فرج الله في معرض ردّه على أخذ العقاد بمبدأ التطور عند كلامه عن عقيدة التوحيد[2]

وفي خاتمة كتابه(الله) يظهر التأثر الواضح للعقاد بفكرة التطور في الفكر الديني، وصولا إلى تبلور عقيدة التوحيد، فهو يقول: "الإنسان لم يصل إلى التوحيد دفعة واحدة، ولم يفهمه على وجهه الأقوم عندما وصل إليه. بل تعثّر في سعيه، وأخطأ في وعيه، ولم يزل مقيّداً بأطوار الاجتماع وحدود المعرفة عصراً بعد عصر وحالا بعد حال"[3]، وعند تعرضه لتدين بني إسرائيل، يعتبر أنّهم بدأوا تدينهم بعبادة الأسلاف والأوثان، والكواكب والظواهر الطبيعة والحيوانات وغيرها، ويتكلّم عن قوم إبراهيم عليه السلام كونه جدّهم، وكيف أنّ عباداتهم بقيت في بني إسرائيل إلى ما بعد دعوة إبراهيم وظهور أنبيائهم، وكيف أنهم عبدوا العجل[4].. فهل غاب عن العقاد أن بني إسرائيل هم بالتحديد ذرية أبناء يعقوب عليه السلام، الأسباط الاثنا عشر، وقد كانوا على التوحيد؟. ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ البقرة 136، فالتوحيد هو الأصل في دين بني إسرائيل، ثم انحرف بعضهم عنه إلى عبادة العجل، كما عمّ فيهم التحريف في أمور دينهم والانحراف عن عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى.

أما (طه الهاشمي) فهو يقول: "هكذا تدرج البشر في سلّم الاعتقاد، من معتقد ساذج إلى معتقد تطوّر شيئاً فشيئاً من الوثنية فانتهى بالتوحيد"[5]. فقد يكون بعض البشر لم يفهموا حقيقة التوحيد التي دعاهم إليها الأنبياء عليهم السلام، لكن الأنبياء منذ آدم أبو البشر، عرفوا التوحيد وحيا من عند

---

[1] طه الهاشمي، 1963، ص 6-11.

[2] فرج الله عبد الباري، العقيدة الدينية . نشأتها وتطورها، ص 94.

[3] العقاد، الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، 2022، ص 260.

[4] المرجع السابق، ص32.

[5] طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، ص 13.

الله عز وجل، وفهموا حقيقته وبلّغوها لأقوامهم. وتأثّر طه الهاشمي بالرؤية الغربية ومبدأ التطور، يظهر كذلك في أخذه بالمنهج الذي لا يعتدّ إلا بما هو مكتوب وملموس من الآثار والحفريات وغيرها، ولذلك فهو يعتبر أنّ معرفة الدين البدائي الأول هو أمر عسير، لأنّ معتنقيه من جماعات البشر لم تترك لنا آثاراً مكتوبة [1]

ومن الذين يأخذون بنظرية التطور لدارون أيضا نجد (خزعل الماجدي) الباحث العراقي في علم وتاريخ الأديان والحضارات، الذي يقسّم التطور البيولوجي للإنسان إلى ثلاثة مراحل، بداية بعائلة القردة الدنيا ثم عائلة القردة العليا الشبيهة بالبشر ثم عائلة البشريات، هذه الأخيرة مرّ فيها الإنسان بمرحلة الإنسان القردي ثم الإنسان المنتصب ثم الإنسان النياندرتال ثم ظهر بعدها الانسان العاقل [2]

أما فيما يخص المعتقدات الدينية ورغم إشارته لما يسّميه بالبدايات البسيطة للتوحيد، فإنّها كانت إشارة مغمورة وسط كلامه عن الثنوية والثالوث والتعدّد، واعتباره أنّ كل واحدة منها كانت ثورة على ما سبقها. واعتبر قبل ذلك أنّ هناك توحيد أنثوي قديم (Monotheism) كان في بدايته ثورة روحية على عبادة وأديان الباليوليت والميزوليت. لكنّه في نهاية المطاف يعتبر أنّ التوحيد والقول بالإله الواحد الأحد هو حوصلة للإرث الذي نتج عن كل تلك المعتقدات الدينية، وأنّه أُثري من كل تلك[3]، فهو يتكلم في نهاية المطاف على ما أنتجه العقل البشري وفكره، ولا إشارة له على ما جاء به الأنبياء وما يقوله الوحي المنزّل من عند الله.

كما يذهب (خزعل الماجدي) في كتابه (كشف الحلقة المفقودة بين أديان التوحيد والتعدد)، أنّ الديانة اليهودية نشأت في بابل بعد الأسر البابلي لليهود، أمّا قبل ذلك فهو يرى أنّ اليهود كنعانيون وديانتهم ديانة كنعانية، ويؤكد ذلك قائلا: "بكل ما في هذه الكلمة من دلالة" أمّا إلههم يهوى الذي يعتبره إلههم الخاص من بين آلهتهم الأخرى فقد جعلوه في السماء إلى الأبد، وذلك ما حفز بقوة أكبر ظهور فكرة "الإله السماوي"[4]

فمع ما يكتنف هذا الرأي من غموض، لا نجد له أي إشارة هنا إلى كون اليهود كانوا على التوحيد وما جاء في دين أنبياء بني إسرائيل، قبل السبي البابلي، وقبل ذلك زمن استقرارهم في مصر مع يوسف عليه السلام. وهو ما يتناقض مع كونهم هم من جعل الاله يهوى في السماء، وكأنّ تصورهم للألوهية هو من بنات أفكارهم، مع غياب تام لفكرة وحي منزل على الأنبياء عليهم السلام. ويؤكد تأثر ماجد خزعل بالفكر الغربي حول الأديان قوله: "وقد ظلت هذه الديانة (أي اليهودية) محكومة بالتعدد الإلهي أولا ثم بالتفرد، الذي جعل من أدوناي أو يهوى إلها مركزيا مع غيره من الألهة" [5]

---

[1] المرجع السابق، ص 51

[2] الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، 1997، صفحة 19، 20.

[3] المرجع نفسه، صفحة 165.

[4] المرجع نفسه، ص 244.

[5] المرجع السابق، ص 278.

أما فراس السواح الباحث في تاريخ الأديان، ورغم أنّه يساند من يطالبون بإعادة النظر في مفهوم البدائية، واستبدال هذا المصطلح بالمجتمعات التقليدية أو اللاكتابية، فهو من جهة أخرى واستنادا إلى علم الأنثروبولوجيا البشرية، يعتبر أنّه سبق ظهور الإنسان العاقل، قبل خمسين ألف سنة، ظهور ثلاث مجموعات شبه بشرية تباعا، منذ المليون الرابع قبل الميلاد في إفريقيا[1] وهو يذهب إلى أن فكرة الله هي مفهوم جديد في تاريخ الدين، وأنّه لا يمكن متابعتها إلى ما قبل القرن السادس قبل الميلاد، فظهورها ارتبط بزرادشت، الذي يَعتبره نبي وأنّه أوّل من قال بأنه تلقى وحيا من الإله الكوني الواحد بواسطة ملاك. وهو يعتبر أنّه قبل ذلك كان النّاس يعبدون شخصيات إلهية يقدّسونها، تدير الكون بقوة خارقة لا يملكها البشر. وسبق ذلك غياب للإيمان بوجود آلهة، مع الايمان بوجود قوة غامضة مقدّسة تُسيّر الكون[2]. فالملاحظ أن هذا التوجه تجاوز حدود التأثر إلى الانسياق التام إلى الرؤية الغربية الوضعية، أو على الأقل الترويج لها دون الإشارة إلى الرؤية الدينية بتاتا. ومع ذلك فهو يعتبر أن مهمته كفنومينولوجي، هي مساعدة الآخرين على تكوين رأيهم، دون أن يفكر بالنيابة عنهم.

كما كتب كثير من الباحثين المسلمين في مجال الأديان، فأخذوا بالترتيب الذي تذهب إليه الدراسات الغربية، أو ما كتبه العرب المسيحيين ومنهم (سعيد حبيب) الذي ألّف كتابه (الأديان الكبرى)، فاختار فيه تلخيص كتابين لـ(وليم باتون)، ثم (فصول حول الأديان السامية الثلاثة)، فرتّب الأديان مبتدئا بالوضعية منها (البوذية ثم الهندوسية ثم الكنفشيوسية ثم الشنتوية) ثم اليهودية ثم الإسلام، وانطلاقا من تحيزّه لدينه، ختم الأديان بالمسيحية، لأنّه يعتبرها رسالة جامعة إلى العالم[3]، فرغم ظهور شيء من العشوائية في هذا الترتيب، إلا أنّه عموما يُرسّخ فكرة أنّ الأديان الوضعية سابقة للأديان السماوية التوحيدية، وإن كان التحريف قد شاب التوحيد في اليهودية والمسيحية والفرق المنحرفة عن الاسلام.

وفي المقابل من هذه الآراء هناك من نبّه إلى أنّ التوحيد هو الأصل في تاريخ الأديان، ومنهم (محمد خليفة حسن)، أستاذ تاريخ الأديان في جامعة القاهرة، الذي أشار عند كلامه عن التصنيف التاريخي للأديان، إلى أنّ الباحثين في هذا المجال لا يهتمون إلى النظرية الدينية التي تذهب إلى أنّ التوحيد دين قديم، يعود إلى بداية التاريخ الإنساني. وهو يشير كذلك إلى أنّ النظرة الإسلامية تعتبر الإسلام هو دين البشرية منذ البداية[4]

ونجد كذلك (رفيق زاهر) أستاذ الفلسفة بجامعة الازهر في كتابه (قصة الأديان) يُشير إلى أنّ الأديان السماوية جاءت بعقيدة واحدة، مستندا إلى قوله تعالى: ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ فصلت 43، وغيرها من الآيات التي تؤكد على أنّ ما جاء

[1] فراس السواح، الله والكون والانسان . نظرات في تاريخ الأفكار الدينية، ص29،36.
[2] المرجع نفسه، ص 32.
[3] سعيد حبيب، أديان العالم الكبرى، ص106.
[4] محمد خليفة حسن، تاريخ الأديان، ص 43

به الإسلام وعلى رأسها عقيدة التوحيد، هو ما بُعث به الأنبياء والمرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم[1]. إلا أنه وبعد أن ذكر أنّ الأديان السماوية هي اليهودية والمسيحية والإسلام، لم يُشِر إلى ما حدث من تحريف عند أهل الكتاب من اليّهود والنّصارى. ثم إنّ ذكره لهذه الأديان جاء بالترتيب المتعارف عليه: يهودية ثم مسيحية ثم الإسلام، كل ذلك جاء بعد فصول عرّف فيها بالأديان الوضعية، وهو ما قد يُرسّخ هذا الترتيب في الأذهان، خاصة منها تلك التي تفتقر إلى الثقافة الدينية، ويُثبت فكرة أنّ الأديان الوضعية بما تشتمل عليه من وثنية، سبقت الأديان السماوية التي جاءت بالتوحيد الذي هو الأصل في عقيدتها، رغم ما وقع عند أهل الكتاب من تحريف.

وإلى ذلك يذهب (خليل طاهر) صاحب كتاب (الأديان والانسان منذ آدم)، فبعد عرضه لبعض ما كانت عليه البشرية من خرافات ووثنية، وأنّه قبل أن يضلوا نتيجة لبدعٍ أحدثوها بتعدّد الآلهة وتنويعها، كانوا قبلها يؤمنون بالله الذي دعاهم آدم لعبادته وإلى دينه، وهو ما جعلهم يُحكِّمون العقل، فيفكرون في قوته وسلطانه ويستدّلون عليه بآثاره وبديع صُنعه. وقد قام فيهم الدعاة يدعونهم جيلا بعد جيل إلى الدين الصحيح، يبشّرونهم بأنّ الفوز بالجنّة والنّجاة من النّار مرتبط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح. ولذلك نجد في موروث مختلف الشعوب وآثارها حضورا لصورة النار وعذابها وصور الشيطان وكيده ومكره[2]. كما أشار (محمد أبو زهرة) إلى شطط الغربيين الذين تكلّموا عن التوحيد في ديانة المصريين القديمة، وأنّ ما يمكن أن يكون قد حصل هو توحيد للآلهة في إله واحد. أما عقيدة توحيد الألوهية فيكون قد عرفها المصريّون عن طريق الأنبياء فقد وصل (إبراهيم عليه السلام) إلى مصر، وعاش فيها نبي الله (يوسف عليه السلام)، الذي دعا الناس للتوحيد، ثم جاء من بعده (موسى عليه السلام) داعيا إلى توحيد الله تعالى. ويرفض (أبو زهرة) رأي (أبو الريحان البيروني) القائل أن الخاصّة من الهنود كانوا على التوحيد على عكس عامّتهم، أو أنّه يمكن القول بأنّه توحيد محرّف، مثل ما أنّ العرب في الجاهلية كانوا يؤمنون بأنّ الله هو الخالق ومع ذلك عبدوا الأوثان، وقالوا ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى [3].ومع ذلك فإنّه إن صحّ ما نقله (البيروني) من كتب الهندوس واعتبر أنّه توحيد في الربوبية فهو يشير هنا إلى أن التحريف وقع بعد بذلك، وهو ما يكون قد حدث عند العرب، بعد أن مرّت عليهم رسالات سماوية تدعوهم للتوحيد (هود وصالح وإسماعيل...)

ونجد أن (شيبة الحمد) من السبّاقين الذين نبّهوا لخطأ اتباع الباحثين الغربيين المتأثرين بمبدأ التطور في رؤيتهم لتاريخ الأديان. فبعد أن بيّن أنّ الأصل في البشرية أنّها كانت موحدة لله ثم انحرفت إلى الوثنية، وعلى عكس كثيرين ممّن ألفوا دراسات حول الأديان، سرد كلامه عن الأديان السماوية (اليهودية ثم المسيحية ثم الاسلام) ذكر بعدها الديانات الوثنية أو ما يسمّى بالديانات الوضعية[4].

---

[1] رفيق زاهر، قصة الأديان، ص17،19

[2] خليل طاهر، الأديان والانسان منذ مهبط آدم، ص 75،76.

[3] محمد أبو زهرة، الديانات القديمة ، ص 24،9،6.

[4] عبد القادر الحمد، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، ص 257. 260

7. الخاتمة

يعدّ موضوع أصل البشرية وتاريخ ظهورها على الأرض، وتراكم معارفها في مختلف المجالات، مبحثا مهمّا لرسم رؤية كونية واضحة في الأذهان، كل ذلك له علاقة وطيدة بالتوجه الذي تسلكه مختلف العلوم خاصة العلوم الإنسانية منها. ولذلك نجد أنّ مصادر المعرفة وعلى رأسها الكتب المقدسة لدى شعوب العالم، أشارت لهذا الموضوع. فالمتفحّص لما ورد في الكتاب المقدس والقرآن، يجد تشابها واضحا في تحديد أصل البشرية، وأنّ أبو البشرية جمعاء هو آدم عليه السلام، خلقه الله تعالى من تُراب ونفخ فيه من روحه عز وجل، ثم أخرج منه زوجه حواء، ومن هذا الزوج تكاثرت البشرية.

إلا أنّ التعنت الذي ظهر في العالم الغربي، بعد ثورته على تراثه الديني وتقاليد الكنيسة المسيحية، جعل تيارا من الباحثين يتّجهون إلى طريق الالحاد، ويبحثون عن رؤية بعيدة كل البعد عن الرؤية الكتابية السماوية، ولو كان ذلك على حساب التكريم الذي أكدّت عليه الديانات السماوية لبني آدم، إلى درجة أن بعضهم قال بأنّ أصل الانسان قرد، تطور عبر مراحل زمنية طويلة. ليصبح هذا التطور نظرية تم تطبيقها على مختلف المجالات، ومنها تاريخ الأديان. ففي حين تؤكد الأديان السماوية بأن عقيدة الانسان الأول وذريّته كانت على التوحيد لله تعالى، تذهب الرؤية الوضعية إلى أنّ الأديان تطوّرت معتقداتها من الخرافة إلى تعدّد الآلهة ثم التوحيد. وقد ألّفت الكثير من المؤلفات في تاريخ الأديان انطلاقا من مبدأ التطور هذا في العالم الغربي. إلا أنّ الغريب أن ينساق باحثون مسلمون إلى هذا التوجّه، ويأخذون بهذه الرؤية الغربية الوضعية لتاريخ الأديان القائمة على مبدأ التطور، الذي يخالف في جوهره الرؤية القرآنية والتصور الإسلامي لتاريخ البشرية.

وذلك بسبب الانبهار بتلك الدراسات الغربية الوضعية والتأثر بالرؤية الغربية، وكذا الاعتماد على مؤلفاتها، التي ألغت المصادر الدينية وكل ما يُنسب إلى المصدر السماوي والوحي، رافضة كل ما له علاقة بالغيب، ثمّ أخذت تبحث فيما تركته الشعوب الغابرة من آثار ومخطوطات وحفريات وغيرها مما هو موجود في الواقع ويمكن التعامل معه كمادة ملموسة. في حين أنّه كان الأولى بالباحثين المسلمين الأخذ بالرؤية الإسلامية وما يشير إليه القرآن، فهو حجة بيننا كمسلمين، وهو العاصم من الانسياق إلى فرضيات لا ترتقي إلى مستوى الحقائق، كنظرية التطور لداروين أو المراحل الثلاث لكانط.

ومن النتائج التي نخلص إليها:

- إنّ مشكلة الفكر الغربي الوضعي هي الخلط بين الحقائق الدينية وتديّن الأفراد والشعوب، حيث يتمّ استنباط قضايا الدين المتعلّقة بالعقائد والشرائع، من خلال ممارسات وتصوّرات رجال الدين وربّما من عامّة الناس ممّن قد تكون لهم تصورات دينية مشوّشة، ويتمّ ذلك بالاعتماد على الدراسات الأنثروبولوجية واستعمال مناهج علم الاجتماع والعلوم الإنسانية، التي تدرس الدين كظاهرة اجتماعية.

- المنهج الذي اتبعته تلك الدراسات الغربية الوضعية في تحديد نشأة الدين وظهور الانسان والحضارات، يعتريه الخطأ، لكونه يخلط بين ما هو ضارب في أعماق القِدم، وما هو في الواقع أصل

النشأة، فالصورة المتدنّية أو المنحطّة أو الساذجة للعبادة في العصور القديمة، أو نظيراتها في بعض الجماعات البدائية المعاصرة، لا تمثّل في الحقيقة الحالة التي كان عليها الإنسان الأول، ولا تمثّل نقطة انطلاق التدين على الأرض.

- رغم تضارب النتائج في الدراسات الغربية، واختلاف وجهات النظر إلى درجة التضاد، فيبطل بعضها بعض، يلاحظ غالبا أنّها متحيزة للغرب ولرؤيته الوضعية ونظرياته. وذلك يجعلنا نؤكد على ضرورة فقه التحيز للرؤية الإسلامية في أعمال الباحثين المسلمين.

توصيات:

مما يلاحظ في كثير من الأوساط الثقافية والمعرفية والتعليمية، حضور صورة الإنسان الأول كإنسان بدائي، متوحش وهمجي، ويتم تسويق تلك الصورة وترسيخها في الأذهان، من خلال المؤلفات وعبر مختلف الوسائل الإعلامية، وفي الأفلام والمسلسلات، خاصة الكرتونية منها الموجهة للأطفال، ولها حضورها في مختلف الكتب، بما فيها الكتب المدرسية، ومراجع البحوث الاكاديمية. وعليه نخلص إلى التوصيات الاتية:

- القيام بدراسات تعتمد الرؤية القرآنية، لتعيد النظر فيما تقوله المؤلفات التي تُعتبر مصادر معرفية، الأنثروبولوجية منها والدينية والتاريخية وفي مختلف العلوم الإنسانية وعلوم الاحياء، التي لها أثرها في الأوساط المعرفية والثقافية وخاصة منها الجامعية وفي مختلف الأطوار التعليمية.

- في الدراسات حول الأديان وتدريسها، من الضروري التطرق أولا إلى عقيدة التوحيد وإبرازها كأصل وأنّها أول ما اعتقده الانسان، وأنّ الإسلام هو دين آدم وذريته وكلّ الرسل من بعده، وأنّ الوثنية جاء كانحراف بعد ذلك عن الأصل.

- تجنب الترتيب المعتمد في كثير من الدراسات حول الاديان، التي تتطرق في الغالب إلى الهندوسية وغيرها من الأديان الوضعية ثم اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام. فالأولى بيان التوحيد كعقيدة لآدم أبو البشر والأنبياء من بعده، ثم التطرق لليهودية على اعتبار أنّها امتداد لدعوة إبراهيم عليه السلام، ثم المسيحية ثم الإسلام، ومن ثم الكلام على الأديان الوضعية التي لا زال لها اتباع (الأديان الوضعية الحية).

8. المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **الكتاب المقدس**، (2002). دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

1. (عبد الرحمان الزنيدي. (1998). ***مناهج البحث في العقيدة الإسلامية***. دار اشبيليا.
2. السيد محمد بدوي. (1995). ***مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري***. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
3. جول لابوم. (1924). ***تفصيل آيات القرآن الحكيم***. مصر: مطبعة عيسى البابي وشركاه.
4. جيمس قالفن. (1986). ***التفسير التطبيقي للكتاب المقدس***. القاهرة: شركة ماستر ميديا.
5. حسن عبد الحفيظ عبد الرحمن. (2011). ***الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة***. مصر: دار ابن الجوزي.

6. خزعل الماجدي. (1997). ***أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ***. الأردن: دار الشروق.
7. خزعل الماجدي. (2014). ***كشف الحلقة المفقودة بين أديان التوحيد والتعدد***. المغرب: المركز الثقافي العربي.
8. خليل طاهر. (1976). ***الأديان والانسان منذ مهبط آدم حتى اليهودية، المسيحية، الإسلام***. دار الفكر والفن.
9. رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي. (1989). ***إظهار الحق***. الرياض: الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية.
10. رفيق زاهر. (1980م). ***قصة الأديان*** *. دراسة تاريخية مقارنة*. مصر: دار المطبوعات الدولية.
11. روجيه غارودي. (1981). ***نداء إلى الأحياء***. دمشق: دار دمشق.
12. روجيه غارودي. (1991). ***فلسطين أرض الرسالات***. دمشق: دار طلاس.
13. روجيه غارودي. (2002). ***الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية***. القاهرة: دار الشروق.
14. ريمة شريف الصياد. (2012). ***الأسس الأخلاقية في العهد القديم مع مقارنتها بالقرآن الكريم***. بيروت: دار النوادر.
15. سعيد بن ناصر الغامدي. (2003). ***الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها***. جدة: دار الاندلس الخضراء.
16. سعيد حبيب. (2021). ***أديان العالم الكبرى***. مصر: وكالة الصحافة العربية.
17. طارق الصادق عبد السلام. (2011). ***الأصول المعرفية لمناهج البحث في الفكر الوضعي والفكر الإسلامي***.
18. طه الهاشمي. (1963). ***تاريخ الأديان وفلسفتها***. بيروت: دار مكتبة الحياة.
19. عباس محمود العقاد. (1973). ***الإنسان في القرآن الكريم***. بيروت: منشورات المكتبة العصرية.
20. عباس محمود العقاد. (2022). ***الله: كتاب في نشأة العقيدة الإلهية***. القاهرة: هنداوي للطباعة.
21. عبد القادر شيبة الحمد. (1433هـ). ***الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة***. الرياض: مكتبة فهد الوطنية.
22. عبد الله علي سمك. (2015). ***المنهجية في دراسة الأديان الوضعية***. مكة المكرمة: دار طيبة الخضراء.
23. عبد الوهاب المسيري. (1996). ***إشكالية التحيز***. الولايات المتحدة الامريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
24. علي سامي النشار. (1949). ***نشأة الدين . النظريات التطورية والمؤلهة***. الإسكندرية: دار نشر الثقافة.
25. فاروق الدملوجي. (2003). ***تاريخ الأديان*** *. الآلهية والأهلة*. مصر: الأهلية.
26. فراس السواح. (2016). ***الله والكون والانسان*** *. نظرات في تاريخ الأفكار الدينية*. دمشق: دار التكوين.
27. فرج الله عبد الباري. (2006). ***العقيدة الدينية . نشأتها وتطورها***. القاهرة: دار الآفاق العربية.
28. محمد أبو زهرة. (1965). ***الديانات القديمة***. دار الفكر العربي.
29. محمد خليفة حسن. (2002). ***تاريخ الأديان . دراسة وصفية مقارنة***. مصر: دار الثقافة العربية.
30. محمد عبد الله دراز. (2021). ***الدين . بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان***. القاهرة: دار التقوى.
31. محمد علي الصابوني. (1985). ***النبوة والأنبياء***. دمشق: مكتبة الغزالي.
32. محمد كمال جعفر. (1985م). ***الإنسان والأديان، دراسة ومقارنة***. الدوحة . قطر: دار الثقافة.
33. محمود سلامة. (2000). ***نظرة على دراسة الدين في الغرب في العصر الحديث***. القاهرة: الأنوار.
34. مصطفى الحسن. (2014). ***موجز في طبيعة النص القرآني***. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
35. هاينريش شباير. (2018). ***قصص أهل الكتاب في القرآن***. بيروت: دار الرافدين.
36. هوستن سميث. (2007). ***أديان العالم . دراسة تحليلية روحية***. حلب: دار الجسور الثقافية.